ترجمة وتقديم: مالك سمارة

خطاب لويس براندیس: الصهيونية من منظور سفيرها الأول في الولايات المتحدة

على الرغم من دوره الكبير في نشر الصهيونية إلى غرب الخارطة القصيّ، فإن لويس براندیس (١٨٥٦-١٩٤١) كان أحد قادة الصهاينة المتأخرين. لقد عرَف الصهيونية في مرحلة متقدّمة من حياته الشخصيّة والمهنيّة، لكنه في حقبة مفصلية سيساهم فيها بفوز الرئيس وودرو ويلسون في الانتخابات، ليكافئه هذا الأخير عام ١٩١٦ بتعيينه أولَ قاضٍ يهودي في المحكمة العليا. في الواقع، يمكن القول إن براندیس اكتشف يهوديّته من الأساس متأخّرًا. لقد ولد لعائلة مثقّفة وأرستقراطيّة، سليلًا لوالدين اعتنقا المبادئ الهرطقية للحركة الفرانكية- نسبة ليعقوب فرانك الذي ادّعى أنه المسيح المخلّص، وحضّ على الانعتاق من القيود الدينية، واستقطب نحو ٥٠ ألف مريد من يهود بولندا ووسط أوروبا.

من هنا نشأ براندیس علمانيًّا بثقافة أميركية، حتّى إن عائلته كانت تشارك المجتمع المسيحي أعياده[1].

طرأ التحوّل في أواسط عقده الخامس؛ حينها بدأ يلتقي بأعيان الحركة الصهيونية، من قبيل أرون أهارونسون وناحوم سوكولوف ويعقوب دي هاس.

على هذا النحو، كانت الصهيونية طريق براندیس لاكتشاف يهوديته، وهذه المقولة تلخّص باختصار مغبّة ٣٠ سنة أمضاها الأخير «سفيرًا» للصهيونية في أميركا: إعادة تخليق اليهودية «كعرق» -متفوّق ونبيل- عبر الخطاب الصهيوني. ومن نقطة البدء هذه، تنشدّ الخيوط الأيديولوجية وراء خطبة براندیس المحمّلة بمثل فضلى مدّعاة، وتنفرج التناقضات على مصراعيها- يقول، مثلًا، في تفريقه بين القومية والجنسية، إن الأولى طبيعية

والثانية صنيعة بشر؛ لكنه لا يجد حرجًا، في موضع آخر، في الإفصاح عن المخاوف من أن تساهم بيئة الولايات المتحدة -حيث لا إرث معادٍ للسامية، ولا «غيتوات»، في دفع اليهود للانغماس في المجتمع، ومن ثمّ انمحائهم «كعرق»؛ حتى ينتهي إلى القول «إمّا أن يكون كلّ يهوديّ في أميركا معنا؛ أو يضع نفسه، بقصد أو بغير قصد، بين القلّة التي تعادي شعبها». هكذا يصطنع براندیس الصهيونية كرابطة قوميّة قسريّة، لا يُعرَّف اليهوديّ إلا من خلالها.

لكن المساهمة الأبرز لبراندیس هي ما يمكن أن نطلق عليه «أمركة الصهيونية». بمعزل عن ظاهر سيرته كأحد المؤثّرين في حشد التأييد الأميركي الرسمي لوعد بلفور وفي زرع الفكرة الصهيونية في أوساط اليهود الأميركيين؛ فقد تصوّر هذا الأخير، في المكامن والجوهر، الصهيونيّة كأميركي قبل كل شيء. هذا ما أسرّ به لبلفور خلال اجتماع معه عام ١٩١٩؛ وهذا ما يفصح عنه في خطابه المترجم هنا، في قوله، مثلًا، إن «الولاء لأميركا يتطلّب أن يصبح كل يهودي أميركي صهيونيًّا»، وأن «الروح اليهودية هي في الجوهر حديثة وأميركية»؛ وكذا في تقاطعاته مع المنظّرين الأفنجيليين واقتباساته المتكرّرة منهم. امتدادًا لذلك، بوسعنا أن نلحظ التشبّع الكبير في خطاب براندیس بالمقولات الأميركية الحديثة، ولكن بكلّ إرثها العنصري، الاستعماري، والمستوسل دائمًا قيمَ عدالة نفعيّة/ منقوصة. يكرر الأخير، مثلًا، استخدام مفردات من قبيل: النبل، الحقوق والفرص، العرق، العدالة الاجتماعية، لكنه، على المقلب الآخر، يستبطن خطابًا عنصريًا حينما يسوق اليهود كعرق متفوق، ويشير إلى تراتبيّة بين الأمم، ويستدعي مقاييس «كموميّة الدم» كأساس لنقاء العرق. يبلغ هذا التقاطع العنصري مداه، ببعديه الأميركي والصهيونيّ ملتئمين، حينما يتحدّث براندیس- وهو القاضي الذي حكم بتأييد استمرار الفصل العنصري في الولايات المتحدة- عن أميركا بوصفها دولة تضمّ «جميع القوميّات البيضاء» وحسب، مقصيًا ذوي البشرة الملوّنة من المشهد- على هذا النحو يشير إلى فلسطين بوصفها «جرداء وعقيمة»، ولا يرى فيها بشرًا سوى حفنة من أبناء «عرقه».

خطاب براندیس في المجلس الشرقي للحاخامات الإصلاحيين (نيسان ١٩١٥)[٢]

إن معاناة اليهود بسبب الظلم المتواصل قرابة عشرينَ قرنًا هي أكبر مأساة في التاريخ. لم يكن حاصل تلك المعاناة أكبر مما هو عليه اليوم، ولا الظلم أكثر وضوحًا. ومع ذلك، فإن الحاضر هو بجلاءٍ وقتُ الأمل. يمهّدُ تيّار الفكر العالمي الراهن أخيرًا الطريق أمام نَيلنا العدالة. الحربُ تنمّي أمامنا الفرصَ التي من شأنها أن تجعل حلّ المسألة اليهوديّة ممكنًا. لكن لنستفيد من تلك الفرص ينبغي علينا إدراك الحقائق وقبولها؛ علينا أن نتوخّى مسعانا بهدوء رجل دولة، وأن نتابع بحزم المسار الذي سنقرّره، ونكون مستعدّين إلى الأبد لبذل التضحيات التي تقتضيها قضية عظيمة. هكذا فقط تُكتسب الحرية.

ما هي المشكلة؟

بالنسبة لنا، المسألة اليهودية تعني التالي: كيف بوسعنا أن نؤمّن لليهود، أينما وُجدوا، الحقوق والفرصَ التي يتمتّع بها غير اليهود؟ كيف بوسعنا أن نؤمّن للعالم المساهمة الكاملة التي يمكن لليهود أن يقدّموها، إن انعتقوا من القيود المصطنعة؟

المشكلة ذات بُعدين: أحدهما يتعلّق باليهودي الفرد والآخر باليهود كجماعة. بالطبع لا ينبغي أن يكون أي فرد في أي مكان، فقط لكونه يهوديًّا، عرضة لنكران الحقوق العامّة والفرص التي يتمتع بها غير اليهود. لكن اليهود، كجماعة، ينبغي أن يتمتّعوا كذلك بحقِ وفرصةِ العيش والنماء كسائر الجماعات. هذا الحق في النماء، في ما يخصّ المجموعة، جوهريّ لتمتّع الفرد بحقوقه الكاملة؛ لأن الفرد يعتمد في نمائه (وسعادته)، بشكل كبير، على نماء المجموعة التي يشكّل جزءًا منها. بالكاد يمكننا تصوّر أن يعيش فرد ألماني أو فرنسي ويتقدّم دونما ارتباط بالحياة والثقافة الألمانية أو الفرنسية المعاصرة. ولأن الموت ليس حلًّا لمشكلة الحياة، فإن حلّ المسألة اليهودية ينطوي بالضرورة على استمراريّة وجود اليهود كيهود.

لقد تعهّدت مجالس الحاخامات، وغيرها، في مرّات عديدة، بأن تنصّ بالتعريف على أن أولئك

الذيـن أعلنـوا صراحـةً اعتناقهـم المذهـب الأرثوذكـسي أو الإصلاحـي[٣] هـم فقـط مـن ينبغـي اعتبارهـم يهـودًا. لكـن في الإطـار الـذي نتنـاول فيـه المصطلـح، مؤكّـد أنـه ليـس في وسـع أي كيـان يهـودي، أو في الواقـع اليهـود مجتمعـين، أن يصوغـوا تعريفًـا عمليًّـا. معنـى كلمـة «اليهـود» في مصطلـح المشـكلة اليهوديـة ينبغـي قبولـه بشـكل متناسـب مـع حجـم المعوّقـات ذاتهـا التـي تمثّـل إزالتهـا «مشـكلة» بالنسـبة لنـا. مـن يصنعـون تلـك المعوّقـات هـم غـير اليهـود، وبفعلتهـم هـذه هـم يقدّمون تعريفًـا لمصطلـح «يهـودي». تمتـدّ تلـك المعوّقـات بشـكل واسـع إلى كل أبنـاء الـدم اليهـودي، ولا تنتهـي عنـد التنـازل عـن العقيـدة، وإن كان صاحبهـا مخلصًـا. إنهـا لا تنتهـي عنـد إقصـاء المسـلكيّات اليهوديـة الظاهريـة، وإن كان هـذا الإقصـاء شـموليًّا. لا تنتهـي تلـك المعوقـات حتـى يصبـح الـدم اليهـودي مخفّفًـا تمامًـا عـبر زيجات مختلطـة متكـررة تنتهـي عمليًّـا بطمـس اليهـودي.

نحـن اليهـود كذلـك، عـبر أفعالنـا، نعطـي تعريفًـا مشـابهًا لمصطلـح «يهـودي». فعندمـا يعانـي رجـال ونسـاء مـن دم يهـودي بسـبب تلـك الحقيقـة، أو حتـى لأسـباب أخـرى، يذهـب تعاطفنـا ومعونتنـا نحوهـم بشـكل غريـزي أينمـا وُجـدوا، ودون الخـوض في خبايـا عقيدتهـم. عندمـا يُظهـر سـليلو الـدم اليهـودي تفوّقًـا أخلاقيًّـا أو فكريًّـا، عبقريـةً أو موهبـة خاصـة، فإننـا نشـعر بالفخـر، حتّـى ولـو هجَـرُوا عقيدتهـم كسـبينوزا وماركـس ودزرائيـلي و(هاينـرش) هاينـه.

الأمة والقومية
(Nations and Nationality)[٤]

الفـرق بـين الأمـة nation والقوميـة nationality واضـح، سـوى أنـه ليـس ملاحظًـا دائمًـا. التماثـل بـين الأعضـاء هـو أسـاس القوميـة، لكـن أعضـاء الأمـة الواحـدة قـد يكونـون مختلفـين جـدًّا. قـد تتكـون الأمـة مـن قوميـات عـدة، كحـال معظـم الـدول الناجحـة. أحـد الأمثلـة عـلى ذلـك الأمـة البريطانيـة، وهـي المقسـمة إلى إنكليـز وأسـكتلنديين وويلزيـين وأيرلنديـين في الديـار، وإلى فرنسـيين في كنـدا خـارج الديـار؛ وكـذا ثمّـة عشرات مـن القوميـات الأخـرى عـلى امتـداد الإمبراطوريـة. هنـاك أمثلـة أخـرى نجدهـا في الأمـة السـويسرية بتفرعاتهـا الألمانيـة والفرنسـية والإيطاليـة؛ وفي الأمـة البلجيكيـة المكوّنـة مـن فلانديريـين ووالونيـين؛ وفي الأمـة الأميركيـة

لويس براندیس.

التـي تضـم جميـع القوميـات البيضـاء تقريبًـا. وحـدة القوميـة إحـدى حقائـق الطبيعـة؛ أمـا وحـدة الأمـة فهي إلى درجـة كبـيرة صنيعـة الإنسـان. المذهـب المغلـوط القائـل إن الأمـة والقوميـة يجـب أن يكونـا متكاملـين هـو سـبب بعـض أعظـم مآسـينا. إنـه، بدرجـة كبـيرة، سـبب الحـرب الراهنـة. لقـد أفـضى، مـن ناحيـة، إلى محـاولات قاسـية وعقيمـة للاسـتيعاب القـسري، كإضفـاء الطابـع الـروسي عـلى فنلنـدا وبولنـدا... كمـا أفـضى، مـن ناحيـة ثانيـة، إلى ظهـور الحـركات العصبويّـة التـي لا تعـدو كونهـا غطـاء للطموحـات القطريـة. مثلمـا قـد تتطـوّر الجنسـية عـلى الرغـم مـن شـمولها العديـد مـن القوميـات، فـإن القوميـة قـد تتطـوّر عـلى الرغـم مـن أنهـا تـرصّ إِرَبًـا مـن أمـم عـدّة.

توكيد القومية اليهودية

نحـن نـدرك أنـه مـع كلّ طفـل ينبغـي أن يكـون الهـدف مـن التعليـم إنمـاء شـخصيّته الفريـدة، وليـس تحويلـه إلى مقلِّـد، ولا صهـرَه في الآخريـن. هـل علينـا أن نفشـل في إدراك تلـك الحقيقـة عنـد تطبيقهـا عـلى شـعوب بأكملهـا؟ ومـاذا أظهـرت شـعوب العالـم مـن شـخصيّةً أكثـر مـن اليهـود؟ هـل لأحدهـا مـاضٍ أنبـل؟ أو أفـكار مشـتركة أفضـل وأجـدى بـأن يعـبّر عنهـا؟ أو سـمات أجـزى أن تُنمّـى؟ ثمّـة شـعبان اثنـان يتقدّمـان شـعوب الأرض قاطبـة كمسـاهمين في حضارتنـا اليـوم: الإغريـق واليهـود. لقـد منـح اليهـود العالـم دياناتـه الثـلاث العظمـى، وتوقـير القانـون، وأسـمى مفاهيـم

الأخلاق. لم يقدّر أحد مساهماتنا عامّةً من قبل. لقد أصبحت تعاليمنا عن الأخوة والاستقامة، تحت اسم الديمقراطية والعدالة الاجتماعية، كفاح القرن العشرين في أميركا وأوروبا الغربية. يتجسّد مفهومنا للقانون اليوم في الدستور الأميركي الذي يعلن أن هذا «حكم قوانين لا رجال». ومن أجل تعليمنا العظيم الآخر- عقيدة السلام، تمهّد هذه الحرب الطريق.

بينما تسعى جميع الشعوب الأخرى إلى التطور عبر توكيد قوميّتها، وتبيّن هذه الحرب قيمة الدول/القوميات الصغيرة؛ هل نرضخ طوعًا لمعاداة السامية، وننهي «مسألتنا» بالانتحار النبيل بدلًا من حلّها؟ حقًّا هذا ليس زمن اليأس بالنسبة لليهود. دعونا نبيّن للعالم أننا أيضًا قوميّة تناضل من أجل حقوق متساوية في الحياة والتعبير عن الذات.

الصهيونية

في مواجهة هذا الأساس الواسع للقومية، تهدف الصهيونية إلى منح الأخيرة التطوّر الكامل. دعونا نضع نصب أعيننا بوضوح ما هي الصهيونية، أو بالأحرى ما هي ليست عليه؟

إنها ليست حركة لإخراج كل يهود العالم قسرًا إلى فلسطين. في المقام الأول، ثمّة ١٤ مليون يهودي، ولن تسع فلسطين أكثر من ثلث هذا العدد. ثانيًا، هي ليست حركة لجبر أي أحد على الذهاب إلى فلسطين؛ هي في الجوهر حركة لمنح اليهودي حريّة أكبر لا أقل. إنها تهدف لتمكين اليهود من ممارسة الحق ذاته الذي تمارسه الآن عمليًّا شعوب الأرض قاطبة: أن يعيشوا باختيارهم في أرض آبائهم أو في أي بلد آخر؛ وهو حق قد يمارسه الآن أعضاء الشعوب الصغيرة تمامًا كما الكبيرة- قد يمارسه الأيرلنديون، الإغريق، البلغاريون، الصرب، البلجيكيون، تمامًا كما الألمان والإنكليز.

تسعى الصهيونية إلى أن تؤسس في فلسطين، لأولئك اليهود الذين يختارون الذهاب إلى هناك والبقاء، وكذا لأحفادهم، موطنًا مؤمّنًا قانونًا، حيث بوسعهم أن يقيْموا معًا حياة يهودية، ويتوقعوا في نهاية المطاف أن يشكّلوا الأغلبية، ويتطلّعوا قدمًا إلى ما ينبغي أن نسمّيه الحكم الذاتي. يسعى الصهاينة إلى تأسيس هذا الوطن في فلسطين لأنهم مقتنعون بأن توق اليهود السرمدي إلى فلسطين هو حقيقة بالغة الأهمية، وأنه أحد مظاهر النضال من أجل الوجود لشعب قديم ابتنى حقّه في الحياة- شعب على امتداد ٣ آلاف عام من الحضارة أنتج إيمانًا، وثقافة، وشخصية فريدة تخوّله بشكل كبير أن يساهم مستقبلًا، كما فعل ماضيًا، في تقدّم الحضارة. هذا ليس حقًّا وحسب، بل لزام على القومية اليهودية البقاء والتطور. يعتقد هذا الشعب أنه في فلسطين فقط يمكن للحياة اليهودية أن تكون محميّة تمامًا من قوى التحلل- أنه فقط هناك بوسع الروح اليهودية أن تبلغ نماءها الكامل والطبيعي، وأن تأمين الفرصة لأولئك اليهود الذين يرغبون في الاستقرار هناك لن يعود عليهم وحدَهم بالفائدة؛ بل على اليهود الآخرين جميعًا؛ وستجد المسألة اليهودية، التي لطالما ظلّت إشكالية، حلًّا لها أخيرًا.

إنهم يؤمنون أنه لتحقيق ذلك ليس ضروريًّا أن يكون عدد اليهود في فلسطين كبيرًا مقارنة بعدد اليهود في العالم؛ لأنه على امتداد القرون التي بلغ فيه تأثير اليهود ذروته، خلال الإمبراطوريات الفارسية والإغريقية والرومانية، عاشت نسبة ضئيلة من اليهود في فلسطين؛ ونسبة صغيرة فقط عادت من بابل عندما أعيد بناء الهيكل.

منذ خراب الهيكل، قبل نحو ألفي عامي... ظلّ شوق العودة إلى أرض الآباء دعامة اليهودي في أوقات الاضطهاد، ولتحقيقه صلّى المتديّنون على الدوام... الحركة الصهيونية مثالية، ولكنها عملية في الأساس. إنها تسعى لجعل حلم الحياة اليهودية في الأرض اليهودية حقيقة كما تحقّقت أحلام عظيمة أخرى في العالم من قبل رجال يعملون بتفانٍ وذكاء وتضحية. هكذا تحقق حلم الاستقلال الإيطالي، والوحدة، بعد قرون من الأمل المبدّد، عبر جهود مازيني، وجاريبالدي، وكافور. هكذا أيضًا أصبحت أحلام اليونانيين والبلغاريين والصرب في الاستقلال حقيقة.

الصهيونية واقعًا

لم تعد إعادة إحياء الأمة اليهودية مجرّد حلم. إنها في طريق الإنجاز بأكثر الطرق عملية، والقصة أخّاذة. قبل نحو جيل استدار مهاجرون يهود من روسيا ورومانيا شرقًا، بدلًا من التوجه إلى هذا البلد المضياف حيث كان بوسعهم تأمين العيش الرغيد بسهولة، وغايتهم كانت الاستقرار في بلد آبائهم.

لكن المساهمة الأبرز لبراندیس هي ما يمكن أن نطلق عليه «أمركة الصهيونية». بمعزل عن ظاهر سيرته كأحد المؤثّرين في حشد التأييد الأميركي الرسمي لوعد بلفور وفي زرع الفكرة الصهيونية في أوساط اليهود الأميركيين؛ فقد تصوّر هذا الأخير، في المكامن والجوهر، الصهيونيّة كأميركي قبل كل شيء. هذا ما أسرّ به لبلفور خلال اجتماع معه عام 1919؛ وهذا ما يفصح عنه في خطابه المترجم هنا.

بالنسبة للمتعقّلين بدت جهود الاستعمار هذه خرقاء للغاية. الطبيعة والإنسان في فلسطين مثّلا عقبة بدت لا تُذلَّل؛ وكان المستعمرون، في الواقع، ضعيفي التذخير من أجل هذه المهمة، ما عدا روح التفاني عندهم والتضحية بالنفس. كانت الأرض، المثقلة بقرون من سوء الإدارة، غير مشجّرة ومُجدَبة بجلاء، وموبوءة بالملاريا كذلك. لم تقدّم لهم الحكومة أي أمن، سواء لحياتهم أو ممتلكاتهم. لم يكن المستعمرون إيّاهم غير ملمّين بطبيعة البلد وحسب، بل أيضًا جاهلين بحياة المزارعين التي استوسلوها. بالنسبة ليهود روسيا ورومانيا، فقد حرموا من فرص امتلاك أرض أو تشغيلها. زد على ذلك أن هؤلاء المستعمرين لم يتأقلموا مع المشقّات الجسديّة التي تستتبعها حياة الرواد. بسبب تلك المشقّات والملاريا استسلم كثيرون. أولئك الذين نجوا قوبلوا بالفشل لفترة طويلة. ولكن في النهاية تحقق النجاح. خلال جيل، أفلح هؤلاء الحجاج اليهود الآباء، وأولئك الذين تبعوهم، في تشييد هاتين المقولتين التأسيسيّتين:

أولًا: أن فلسطين مناسبة لليهودي الحديث.
ثانيًا: أن اليهودي الحديث مناسب لفلسطين.

تشهد أكثر من أربعين مستوطنة ذاتيةِ الحكم على هذا الإنجاز المميز.

أثبتت هذه الأرض، التي كانت خالية من الأشجار منذ جيل مضى، والمفترض أن تكون مجدبة وجرداء على نحو ميؤوس منه، أنها كانت كذلك بسبب سوء إدارة البشر. لقد أُثبتت أنها مؤهلة لتصبح مرّة أخرى أرضًا «تفيض الحليب والعسل». الآن ينمو هنالك البرتقال والعنب، الزيتون واللوز، القمح وأنواع الحبوب الأخرى، وبوفرة.

لقد وضع آباؤنا الحجاج اليهود الأساس. ما يتبقّى علينا هو أن نبني الهيكل العلوي وحسب.

الصهيونية وحب الوطن

لا يتخيلنّ أي أميركي أن الصهيونية لا تنسجم مع الوطنية. الولاءات المتعدّدة بغيضة إن كانت غير منسجمة وحسب. يصبح الرجل مواطنًا أفضل في الولايات المتحدة لكونه أيضًا مواطنًا مخلصًا لدولته، ولمدينته- لأسرته، لمهنته أو تجارته، لكلّيته أو نُزله. كلّ أميركي أيرلندي ساهم في تعزيز الحكم الذاتي كان رجلًا أفضل وأميركيًّا أفضل. كل يهودي أميركي يساهم في دفع الاستيطان اليهودي في فلسطين قدمًا، حتى وإن شعر أنه وأحفاده لن يعيشوا هناك البتة، سيكون أيضًا رجلًا أفضل وأميركيًّا أفضل لفعله هذا.

لاحظ ما يقوله سيتون واتسون:

«أميركا مليئة بالقوميات التي، بينما تقبل بحماس جنسيتها الأميركية الجديدة، تنظر إلى مركز ما آخر في العالم كمصدر وملهم لثقافتها وتقاليدها القومية. المثال الأكثر شيوعًا هو شعور اليهودي الأميركي تجاه فلسطين الذي من شأنه أن يصبح كذلك محطّ أنظار بني جلدته في أنحاء أخرى من العالم. (الحرب والديمقراطية، ص٢٠٩).

لا تناقض بين الولاء لأميركا والولاء لليهودية. الروح اليهودية، نتاج ديننا وتجاربنا، هي في الجوهر حديثة وأميركية. منذ خراب الهيكل لم يحظ اليهود بمثل هذه الروح والمُثل تناغمًا مع التطلّعات النبيلة للدولة التي يعيشون فيها.

يسعى القانون الأساسي الأميركي إلى جعل الأخوة بين البشر واقعًا. أصبحت تلك الأخوة القانون الأساسي لليهود منذ أكثر من ٢٥٠٠ عام. مطلب

أمـيركا الملـحّ في القـرن العشريـن العدالـة الاجتماعيـة؛ وذاك كان مسـعى اليهـود منـذ عصـور. الابتـلاءات، وكـذا الديـن، أعـدّا اليهـود لديمقراطيـة فعليّـة. الاضطهـاد زاد مـن روح التعاطـف لديهـم؛ لقـد درّبهـم عـلى الاحتمـال، وضبـط النفـس، والتضحيـة. لقـد جعلاهـم يفكّـرون ويعانـون في الآن معًـا، وعمّقـا عندهـم الشـغف نحـو الإنصـاف.

بحـقّ، الـولاء لأمـيركا يتطلّـب أن يصبـح كل يهـودي أميركـي صهيونيًّـا؛ لأنـه فقـط مـن خـلال التأثـير النبيـل لمسـاعيها بوسـعنا أن نطـوّر أفضـل مـا فينـا، ونمنـح لهـذه البلـد المنفعـة الكاملـة مـن ميراثنـا العظيـم.

المطلوب في أميركا

لكـن لدينـا أيضًـا واجبًـا فوريًّـا وأكثـر إلحاحًـا في أداء مـا يبـدو أن الصهيونيـة وحدهـا قـادرة عـلى أن تقـدّم مسـاهمة فعّالـة فيـه: علينـا حمايـة أمـيركا وأنفسـنا مـن التثبيـط المعنـوي الـذي تخلـل، إلى حـدّ مـا، في أوسـاط اليهـود الأميركيـين. سـبب هـذا التثبيـط واضـح، ومـردّه، عـلى الأغلـب، حقيقـة أنـه في أرضنـا هـذه، أرضِ الحريـة، أزيلـت كل القيـود التـي كان اليهـود يتحصّنـون بهـا في الغيتـو، وتُـرك جيـل جديـد بأكملـه مـن دون الدعـم المعنـوي والروحـي الـلازم. أليـس واضحًـا بالقـدر ذاتـه مـا هـو العـلاج الوحيـد الممكـن؟ إنهـا مهمّـة غـرس تقديـر الـذات- مهمّـة لا يمكـن تحقيقهـا إلا مـن خـلال إعـادة الروابـط بـين اليهـودي والمـاضي النبيـل لعرقـه، وجعلـه يـدرك إمكانيـات مسـتقبل لا يقـلّ مجـدًا. الحصـن الوحيـد ضـدّ التثبيـط المعنـوي هـو أن تتنامـى لـدى كل جيـل مـن اليهـود في أمـيركا روح الالتـزام النبيـل. يمكـن أن تُنمّـى هـذه الـروح في أولئـك الذيـن يعتـبرون أن شـعوبهم مقـدرة للعيـش، والعيـش مـع مسـتقبل مـشرق. يمكـن أن تُنمّـى هـذه الـروح أيضًـا عـلى أفضـل وجـه مـن خـلال المشـاركة النشـطة في تعزيـز مُثـل النهضـة اليهوديـة، وهـذا قابـل للتحقـق فقـط مـن خـلال دفـع الحركـة الصهيونيـة قدمًـا.

لا مجرمـين في مسـتوطنات فلسـطين اليهوديـة؛ لأن الجميـع، شـيبًا وشـبّانًا، مدفوعـون إلى الشـعور بمجـد شـعبهم والتزامـه بالمـضيّ في مُثلـه العليـا. يهود فلسـطين الجديـد ينتجـون، بـدلًا مـن المجرمـين، علمـاء مثـل أرون أرونسـون- مكتشِـف القمـح البـرّي؛ ومعلّمـين مثـل دافيـد يلـين؛ وفنانـين مثـل بوريـس شـاتز- مؤسـس بيتسـليئيل[٥]؛ و»شـومريم» جسـورين- حـراسِ السـلام، الذيـن يبقـون متيقّظـين في الليـل إلى اللصـوص ومقـترفي أفعـال العنـف.

لقـد جلبـت الحركـة الصهيونيـة مثـل هـذا الإلهـام إلى اليهـود في الشـتات، كمـا يُـبرز سـتيد في هـذا المقطـع اللافـت مـن كتابـه «ملَكيّـة هابسـبرغ»:

«بمـدارك كهـذه جـاءت الصهيونيـة بقـوّة أفنجيليـة: أن تكـون يهوديًّـا وأن تفخـر بذلـك، أن تلتمـس المجـد في قـوّة وصلابـة عرقـك- تقاليـدِه، انتصاراتـه، معاناتـه، مقاومتـه للاضطهـاد؛ أن تنظـر في وجـه العالـم بصراحـة وأن تسـتمتع برفاهيـة الصـدق الأخلاقـي والفكـري؛ أن تشـعر بالمفخـرة والانتمـاء إلى الشـعب الـذي أعطـى العالـم المسـيحي لاهوتياتـه، وعلّم نصـف العالـم التوحيد، وتغلغـل فكـره في الحضـارة كمـا لـم يفعـل أي عـرق من قبـل، ووسـمت عبقريّتـه الآليـة الكاملـة للتجـارة الحديثة، وشـغل فنّانـوه وممثّلـوه ومغنّـوه وكتّابـه مكانـة في العالـم المثقّـف أكـبر مـن أي شـعب آخـر. تلـك القيـم، أو شيء مـن نحوهـا، كانـت قاطـرة الأفـكار التـي أطلقتهـا شرارة الصهيونيـة في عقـول الشـباب اليهـودي. كان تأثيرهـا عـلى الطـلاب اليهـودي في الجامعـات النمسـاوية فوريًّـا ولافتًـا. حتّـى ذلـك الوقـت كان هـؤلاء يتعرضـون للامتهـان وسـوء المعاملـة، لكنهـم شـقّوا طريقهـم إلى التعيينـات والمهـن الحـرّة بفضـل قابليتهـم للتكيـف، وتواضعهـم الصـوَريّ، وحدتهـم الذهنيـة، والحمايـة السريّـة. إذا تعرّضـوا للـضرب أو البصـق مـن الطـلاب (الآريـين)، فنـادرًا مـا يجازفـون بـردّ الإهانـة. لكـن الصهيونيـة منحتهـم الشـجاعة. لقـد شـكّلوا روابـط، تلقّـوا تدريبـات رياضيـة، وتمرّنـوا عـلى المبـارزة. الآن، تُقابَـل الإهانـة بالإهانـة، ويجـد أفضـل مبـارزي القـوات الألمانيـة القتاليـة أن الطـلاب الصهاينـة يسـتطيعون شـقّ الخـدود تمامًـا كأي تيوتـن... هـذا التأثـير المعنـوي للصهيونيـة لا يقتـصر عـلى طـلاب الجامعـات وحسـب؛ بـل مُلاحـظ في أوسـاط الشـباب اليهـودي في الخـارج، وفيـه يجـدون سـببًا لرفـع رؤوسـهم عاليًّـا، والتحديـق مبـاشرة في المسـتقبل، أخـذًا بالاعتبـار موقفهـم إزاء المـاضي.

واجبنا

الواجـب الملقـى عـلى عاتقنـا في أمـيركا ملـحّ عـلى نحو خـاص. تعدادُنـا نحـو ٣ ملايـين يهـودي- أكثـر مـن

خُمس تعداد اليهود في العالم، وأكثر من تعدادنا داخل أي دولة باستثناء الإمبراطورية الروسية. نحن ممثلون لكل يهود العالم، لأننا مؤلفون من مهاجرين أو أحفاد مهاجرين يأتون من كل حدب وصوب. إننا نضم أشخاصًا من كل فئات المجتمع، وكلّ درجات المعتقد الديني. نحن أنفسنا متحررون من المعوقات المدنية والسياسية، ومزدهرون نسبيًّا. إخواننا الأميركيون معبّؤون بروح سامية كريمة، تؤكد على نضالنا من أجل نُبل وتحرير وتنمية جزء مهم من العرق البشري؛ ورجولتهم الفطرية تجعلهم يتعاطفون خصوصًا مع جهودنا في مساعدة أنفسنا. إن انفصال أميركا عن مشكلات العالم القديم يريحنا من الشكوك والحرج الذي يلاحق أنشطة اليهود في الدول الأوروبية المتنافسة، كما لا يمكن تصوّر تضارب المصالح أو الطموحات الأميركية والأهداف اليهودية. ولاؤنا لأميركا غير قابل للتشكيك.

الهوامش

1 John R. vile. **Great American Judges: An Encyclopedia**, volume 1, ABC-CLIO, 2003, p.122.

٢ لقراءة الخطاب كاملًا:

Luis D. Brandies, **Speech to the Conference of Eastern Council of reform Rabbis, April 25, 1915**, University of Louisville, https://louisville.edu/law/library/special-collections/the-louis-d.-brandeis-collection/the-jewish-problem-how-to-solve-it-by-louis-d.-brandeis (Retrieved: 202022/2/)

٣ تسمّى أيضًا اليهودية الليبرالية أو التقدّمية، وهي حركة دينية تنقيحية ظهرت في ألمانيا خلال سبعينيات القرن التاسع عشر، وهي، على غرار الحركة المسيحية الإصلاحية، تتجاوز التعريفات العقائدية الصارمة، ومحددات النصوص الوضعية، وتؤكد على أن العقيدة في تطوّر مستمرّ كالطبيعة، وتعتقد باستمراريّة الوحي الذي يتّصل بالعقل البشري، ولا يقتصر فقط على ما أنزل في وادي سيناء.

٤ يقصد براندیس الأمة بمفهوم أمة المواطنين.

٥ مدرسة للفنون والتصميم أسسها شاتز في القدس عام ١٩٠٦ بتمويل من الصندوق القومي اليهودي.